بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث الرابع

رجوع الصليبيين الى ملك بيروت

ثمَّ مات صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (٧ آذار ١١٩٣) وكان الصلح قد استقرَّ بين المسلمين والفرنج في اواخر أيامهِ. قال ابن الاثير في تاريخ السنة ٥٩٣ (١١٩٧ م) :

«فلمَّا توفي (صلاح الدين) وملك اولادهُ مدَّهُ جدَّد الملك العزيز الهدنة مع الكُندهري (١ وزاد في مدَّة الهدنة وبقي ذلك الى الآن (اي السنة ٥٩٣). وكان بمدينة بيروت امير يُعرَف بأسامة وهو مُقطَعُها فكان يرسل السَّوافي فتقطع الطريق على الفرنج. فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرَّة الى الملك العادل (اخي صلاح الدين) والى الملك العزيز (ابنهِ) بمصر فلم ينتهِ اسامة من ذلك. فارسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون: ان لم تُنجدونا والَّا اخذ المسلمون البلاد. فأمدَّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة. . . ووصل الخبر المسلمين بان الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة (ايلول ١١٩٧) الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت. فسار اليها جمعٌ من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجَّة (٢١ ت ١) وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فلمَّا رآهم اسامة من ذلك وتكدَّل بحفظها. ورحل الفرنج من عكَّا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيداء وجرى بينهم مناوشة فقُتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل. وسار الفرنج تاسع ذي الحجة (٢٣ ت ١) فوصلوا الى بيروت. فلمَّا قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معهُ من المسلمين فملكوها صفوًا عفوًا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة»

وكان الذي استولى على بيروت الملك أموري بمساعدة الالمانيين. وفي تواريخ الفرنج ان الملك العادل سيف الدين جُرح في واقعة صيدا فقصد بيروت ليتحصَّن فيها الَّا ان بعض الاسرى الذين كانوا في قلعتها عاينوا اسطولًا للنصارى مجتازًا امام المدينة

(١ هو الكُندهري وبالعربية اخو الملك الانكليز ريشرد قلب الاسد وناشبهُ بالسلطان

فاشاروا اليهم وتمكن الاسرى من قتل الحرس وفتحوا ابواب الحصن للفرنج فدخلوه. وفي اليوم التالي جاء عسكر البرّ من جهة صيدا فدخلوا المدينة في ٢٥ ت ١ سنة ١١٩٧ واطلقوا سبيل ١٤،٠٠٠ من الفرنج كانوا فيها

ثمّ توالت الحروب بين المسلمين والفرنج نحو سنة كاملة فكان الملك العادل والملك العزيز دائبين على محاربة الصليبيين الى ان اضطرّ الملك العزيز الى الذهاب الى مصر لتأييد سلطانه فيها. فتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج حتى اصطلحوا على ان تبقى بيروت بيدهم. وكان الصلح في شعبان سنة ٥٩٤ (حزيران ١١٩٨) كما افاد ابن الاثير في تاريخه الكامل

البحث الخامس

بيروت وامراؤها الفرنج من أسرة ديبلين

ثمّ اراد الملك اموري ان يتفرّغ لامور مملكته فتنازل عن حكمها لاحد امراء دولته المدعو كونراد دي مونفرّا (Conrad de Monferrat) وكان لامرأته ايزابلّا ملكة اورشليم سابقاً شقيقٌ ذو خصال فريدة في النجابة والشهامة وحسن السياسة يُدعى جان ديبلين (Jean d'Ibelin). وكان من اسرة شريفة عريقة في المجد تفوّقت على سواها في الحروب الصليبيّة فعُهد الى ذويها اجلّ المناصب وقُلّدوا الامارة على عدّة مدن كيافا وارسوف ورملة ونابلس. وكان ابوهُ يدعى باليان (Balian) من فرسان الفرنج استولى على يُبْنَى وهي بلدة جنوبيّ يافا تبعد عنها مرحلةً في وسط الطريق بين لُدّ واشدود وهي اليوم خراب وكان الفرنج يدعونها إبلين او ابلين فاليها نُسب باليان دِبْلين (Balian d'Ibelin)

وكان ابنهُ جان من فرسان العصر المتازين بفضلهم وجميل صفاتهم خلّف اباهُ في ارثه فعُرف باسم جان ديبلين وقلّدهُ الملك رتبة كندُسطيبل (Connétable) لمملكة اورشليم. فلمّا انتدبهُ كونراد دي مونفرّا الى امرة بيروت تخلّى عن رتبته ليتفرّغ لشؤون منصبه الجديد

وكان اوّل ما فكّر فيه عند توليته على بيروت انهُ باشر في تحصينها فاقام اسوارها ودعّمها بالابراج ورمّم حصنها فصارت من احرز مدن سواحل الشام وأمنعها في وجه العدوّ. ولم يجتزئ بذلك بل فتح لها المدارس فراجت فيها سوق الآداب وزيّنها

بالمعاهد الفخمة ونشّط ارباب الحرف والصنائع ووسّع نُطق التجارة واستدعى الى ثغر بيروت اهل البندقيّة والتاجرين من الجنويّين والبيزان فكانت سفنهم تقدم الى بيروت ناقلةً اليها مرافق الفرنج وتنقل منها الى انحاء الغرب محصولات الشام

وبقي جان ديبلين في امرته خمساً وثلثين سنةً ساس بيروت في مدّتها بحكمة نادرة ودافع عنها دفاع الابطال واشتهر ببلاغة لسانه كما نصّ عليه صاحب كتاب الدستور الاورشليمي (Assises de Jérusalem) حتى ذاع صيتهُ في الشرق والغرب. وكان لا يقع امرٌ ولا يجري حادث في الشام وقبرس وفلسطين إلّا وله فيه نصيب كبير. وكان احد مستشاري دولة الفرنج في تدبير امور مملكتهم الشرقيّة. وورث من اهله مدينة يافا وكانت زوجتهُ ابنة صاحب أرسوف فلمّا مات حموه صار هذا الحصن في حوزته. فطمع فيه ذوو المطامع وحاولوا غير مرّة ان ينتزعوهُ من يده وساروا الى محاربته. فتصدّى لهم جان ديبلين وردّ غاراتهم حتى أيسوا من فتح الحصن

وكان لجان ديبلين اخٌ يدعى فيلبس تعيّن وليًّا للملك هنري دي لوزنيان ملك قبرس قبل بلوغه فمات في تلك الاثناء. فخلفهُ جان في نيابته. ومن مآثره في اثناء تدبيره لتلك المملكة انهُ قام في وجه الملك فردريك الثاني عدوّ الكرسي الرسولي والمحروم من الحبر الاعظم غريغوريوس التاسع لمّا قصد الاراضي المقدّسة مع جيش من اللمبرديين فحالف الملكَ الكامل سلطان مصر ووعدهُ بمحاربة الملك المعظم صاحب دمشق فاعطاه الملكُ الكامل مدينةَ القدس وبيت لحم وفتح فردريك بعض المدن التي في ايدي الصليبيين واستولى على قبرس فحاربهُ الصليبيون. وكان جان ديبلين احد زعماء الفرنج الذين سعوا الى كبح جماحه وردّ غارات اللمبرديين فنالهُ منهم اذًى وافر لكنهُ لم يزل يناوشهم القتال ويدافع عن الملك وعن مدينة بيروت الى ان فاز بالنصر في مدينتَي اغريدي وسيرين من اعمال قبرس وكسر شوكتهم سنة ١٢٣٣ فرجعوا الى ايطالية خاسرين. فخوّل هذا الانتصار مجدًا جديدًا جان ديبلين الذي بفضله ثبت على عرش قبرس ملكها الشرعي وتمتّعت بيروت بحصانتها من معرّة اعدائه

كانت وفاة جان ديبلين سنة ١٢٣٦ في عكا قطّرهُ فرسهُ فمات بعد ان اوصى بالامرة لابنته البكر وهو باليان الثالث وولّى على ارسوف ابنهُ الاصغر جان سيّئ. وقد جرى باليان على آثار ابيه فاجتمع مع امراء الفرنج لمحاربة من بقي في صور من

حزب الالمان في شهر تموز سنة ١٢٤٣ فابادَ ذكرهم . وقد اختارهُ الامراء كُنْدُسطبلًا لمملكة قبرس . وكان باليان الثالث رجلًا عاقلًا واسع الادب دمث الاخلاق

وخلفه بكره جان الثاني المعروف بالصغير نحو سنة ١٢٥٣ فتوفي سنة ١٢٦١ فصارت إمرة بيروت الى ابنتهِ الكبرى المدعوَّة ايزابلًا (١٢٦٤—١٢٨٠) ثم خلفتها الصغرى المسماة اشيف (Eschive) فاقترنت بالزواج مع امير مدينة صور هُمفروا دي مونفور (Humfroi de Monfort) فاورثتهُ حقوقها على بيروت . ولما مات زوجها سنة ١٢٨٤ صار ابنها رويان (Rupin) سيدًا على صور وبيروت وهو آخر امراء بيروت من الفرنج(١ . فانَّ في ايامهِ كان فتح بيروت على عهد الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك منصور قلاوون الصالحي تولى الملك بعد ابيهِ ٦٨٩ﻫ الى ٦٩٣ ﻫ (١٢٩٠—١٢٩٤) ففتح اولًا عكا ثم المدن الساحلية . وكان صاحب بيروت ارسل الى الملك الاشرف في وقت حصاره لعكا يطلب منه الامان فاجابه الى طلبهِ . لكنه ارسل بعد ذلك احد كبار دولتهِ وهو علَم الدين سنجر الشجاعي ليضع يده عليها . قال صالح ابن يحيى (ص ٤٣—٤٤) :

«فلما وصل سنجر الشجاعي الى بيروت تلقَّاه صاحبها وخيَّمَهُ احسن ملتقى ونزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واشغالهم الى القلعة ففعلوا وظنّوا انه يفعل ذلك شفقةً عليهم . فلما صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيَّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد ٢٣ من رجب سنة ٦٩٠ (٢٣ تموز ١٢٩١م) . . . ثم شرع في هدم سور المدينة وقلعتها وكانت محكمة البنا . ثم جهَّز اهلها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء . ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال : اماني باقي عليكم وخيَّرهم بين العود الى بيروت او التوجه الى قبرس باجمعهم . وكانت مدة استلام الفرنج على بيروت في هذه النوبة خمسًا وتسعين سنة وتسعة اشهر وثلاثة عشر يومًا »

امَّا علم الدين سنجر الشجاعي فلم يلبث ان قُتل وكانت الحرب قد انتشبت بينهُ وبين الامير كُتُبُغا بعد موت الملك الاشرف الخليل فظفر اصحاب كُتُبُغا بسنجر وقتلوه شرَّ قِتلة . قال ابن اياس في تاريخ مصر المسمى ببدائع الزهور (ج١ ص١٣٢) :

«كان سنجر الشجاعي هذا رجلًا مهيب الشكل قاسي القلب مظلم الصورة عسوفًا كثير الاذى اذا ظفر باحد لا يرحمه ولا يراعي في الانام خليلًا فلما ان قتل لم يرثِ له احد من الناس»

---

١) اطلب كتاب شلومبرجر عن مسكوكات اللاتين في الشرق SCHLUMBERGER: Numismatique du royaume latin (p. 116—118)

(لهُ صلة)